في حارة النسيان

قصة : د. سيد شعبان

تبدو الملامح باهتة فلا يكاد يعرف واحد من أهلها، وجوه شتى، بيض وسود وحمر ألوان مختلفات؛ تجمعوا فيما بين بابها وبين الزاوية، إنه صباح يوم لايشبهه صباح مضى عليهم من قبل؛ لقد ضرب المحروسة زلزال تراقصت منه البنايات، ثمة أقاويل بأن عفريت من الجن خرج من جوف النهر، تعدو القطط السوداء وراء العصافير، انتبه عم جاب الله لمفتاح الخزانة، ترى أين هو الآن؟

تمايلت النخلة التي مضى عليها زمن تقف كالمأذنة، لم تكن أمام جاب الله إلا أن يراقص الغراب الذي جاء بالكتاب العتيق من بلاد السودان!

تذكرت وصية أمي:« حين يضرب الغراب جذر النخلة فاخرج من الحارة لا تمكث غير ساعة»

الأبواب موصدة؛ لاأجد كوة أنفذ منها؛ ألقت إلي بنت عم جاب الله بالمفتاح جاءت به من الخزانة العتيقة!

يتراقص القرط من أذنيها، وجهها أشبه بقرص العسل، يممت وجهي شطر ضفة النهر؛ ثمة تمساح يفتح حنكه، تفزعني أسنانه تبدو أشبه بمنشار شعبان شنقار، يكاد يمزق جسدي، فررت منه لما خفته، تجوب حارة النسيان امرأة من الغجر أسنانها من فضة، تحمل على رأسها وعاء به عنزة،

كانت أمي تربطني بحبل؛ تمسك به حتى لاتتخطفني يد الغجرية!

يومئذ تطايرت صفحة من كتاب الشيخ جاب الله، من الغريب أنها علت حتى لامست السحاب، صارت كبيرة فرآها كل من في حارتنا المصابة بالنسيان، أسطرها تتماوج ماء بحر يحوط كفرنا، مفاتيح وسلاسل وقطع نقود نحاسية، تاج أخضر تزينه ياقوتة العرش!

هممت أن أجري في شوارع الحارة، حين بدأت الخطوة الأولى وجدتني مربوطا بحبل إلى جذع النخلة ذات الجريد العالي، فوقها يسكن يمام يتيم، ذبحته امرأة من الغجر جاءت من شلرع الغفران قريبا من مقام سيدنا الدسوقي، يزعق قطار الصحافة عند آذان الفجر، يهزأ بمحطة كفرنا، يثير خلفه زوابع من الأتربة، لو أنه حملني بعيدا حيث العتبة الخضراء!

كنت أحلم برغيف خبز وبضع حبات من الفول، أرتوي من سبيل أم عباس، ربما رفعوني فوق العرش، فحلم الآرائك لمن نال الحظوة، غير أن نعيب الغراب أخذني بعيدا، ثمة أسياف تقطر دما، لا أمتلك حصانا فأقفز به من فوق القلعة، ماتزال حوافره فوق رمال الميدان!

أصابتني غفوة، رأيت أمي في ثوبها الأخضر تطعم فراخ اليمام، تنثر الحب في حارتنا، نبت القمح، تدلت سبع سنبلات خضر، تتراقص العنزات والحملات، تؤذن الديوك فقد اقترب موعد الصلاة!